دراسات الجامعة الإسلامية العالمية شيتاغونغ
ISSN 1813-7733
المجلد الثامن ديسمبر ٢٠١١م (ص ٣٣-٤٨)

الأدب ودوره في تربية الأطفال

محمد شفيع الدين*

ملخص البحث: البحث في مجمله يستعرض مفهوم الأدب والتربية والطفل ويوضح أهمية الأدب ودوره في تربية الأطفال و موقف الإسلام مما يقدم للطفل من أدب بأنواعه المختلفة من القصة أوالحادثة أو الحكاية أو الخبر أو المسرحية أو القصيدة والأنشودة بأن يعني أشد العناية بشكلها وموضوعها حتى يتفق مع منهج الإسلام العقدي والخلقي والتشريعي والاجتماعي، ويحاول الباحث أيضا في هذا المقال أن يبين مهمة الأديب الذي يكتب للأطفال حيث إنها لاتقف عند العرض والكشف، بل مهمته فوق ذلك تقوية إيمان الطفل بالله ثم الوطن الخير والعدالة الإنسانية حتى لا ينخدع الطفل حين يواجه الحياة، فيجب على الكاتب أن يصور له الشر والظلم والاستغلال بصورها الموجودة في المجتمع، تسير جنبا إلى جنب مع الحق والخير والعدالة كما يجب عليهم أن يركزوا الجرعة الإيمانية، وأن يضعوا الضوابط لبعض المفاهيم السائدة، حتى لا يشعر الطفل بالضياع والارتباك، وسوء الفهم والتقدير، من ذلك: الحرية والمسؤولية، والحلال والحرام، والخير والشر، والعيب والذوق، وما يجب وما لا يجب، كل ذلك بأسلوب رقيق رفيق، يأخذ في حسبانه الفئة التي يخاطبها. وفي ضوء ما تقدم عالج المقال الأمور الآتية:

١- المقدمة: في الحمد والثناء لله تعالى وأهمية الموضوع.

٢- التمهيد: المبادئ المتعلقة بالموضوع من مفهوم أدب الأطفال يعنى معنى الأدب والتربية والطفل وأهمية الأدب في تربية الأطفال.

٣- أدب الأطفال في التربية العقدية والخلقية.

٤- القصة في أدب الأطفال.

٥-الخاتمة: وقد تضمنت أهم ما توصلت إليه من نتائج وأفكار خلال دراستي هذا الموضوع.

المقدمة:

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين وعلى آله وصحبه ومن دعا بدعوته وسار على نهجه واتبع سنته إلى يوم الدين وبعد:

---

*الأستاذ المشارك بقسم علوم القرآن والدراسات الإسلامية، الجامعة الإسلامية العالمية شيتاغونغ ، بنغلاديش.

فإن الأطفال قد نالوا كل عناية، واحتلوا مكانة رفيعة في وجوب الاهتمام بهم، ورعايتهم، وتوجيههم، وتربيتهم في المنهج الإسلامي، لأنهم هم الذين سيحملون رسالته، ويؤدون حقه.

والباحث في الآيات الكريمة، وأحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم يجد نصوصا كثيرة تهتم بالطفولة في العناية والتربية والتعليم، تهيئة لمستقبل ينتظرها.

وإن طبائع الأطفال تصغي إلى سماع الأحداث وتطورها وقد عنى الأدب العربي بقصص الطفولة قديماً وحديثاً، فقد نقل لنا الأدب العربي القديم الكثير من القصص التي تتحدث

للأطفال أو تتحدث عنهم، وينقل حكاياتهم وأخبارهم، فقد حرصت كتب التراث الأدبي على أن تنقل بين سطورها حكاية أو حادثة أو خبراً عن الأطفال تذكر قصص شجاعتهم ونجابتهم، وما امتازوا به.

وللقصة في أدب الأطفال مزايا منها أنها تنمي في الطفل مداركه، وتذكي مشاعره، ولها من الأهداف التربوية، والمقاصد التهذيبية، والمزايا اللغوية، إلى جانب ما تحمله من أفكار، وتقدمه من معلومات مختلفة عن كل ما يحيط بالطفل فتوضح له الطريق، وتبصره بالمعاني السامية والأخلاق الفاضلة، وتنفره من كل ما هو مذموم، وتجذبه إلى كل ما هو محمود، إذا كانت هذه مزايا القصة، فإن من نافلة القول أن نؤكد على سلامتها من الغموض، وبعدها عن التكلف، مع وضوح العبارة، والبعد عن اختلاط الأحداث وتداخلها، وصدق الشعور والتعبير عنه، في إطار موضوعي تتنامى فيه الأحداث.

مفهوم الأدب والتربية والطفل:

مفهوم الأدب: الأدب : الذي يتأدب به الأديب من الناس ، سمي أديبا لأنه يأدب الناس إلى المحامد وينهاهم عن المقابح ، وأصل الأدب الدعاء ومنه قيل للصنيع يدعى إليه الناس: مدعاة ومأدبة. قال أبو زيد: "أدب الرجل يأدب أدبا فهو أديب ، الأدب : أدب النفس والدرس وحسن التناول"[1].

الأدب: عبارة عن معرفة ما يحترز به عن جميع أنواع الخطأ[2].

الأدب يدل على رياضة النفس على ما يستحسن من سيرة وخلق ، وعلى التعبير برواية الشعر والقصص والأخبار والأنساب ، وعلى الكلام الجيد من النظم والنثر وما اتصل بهما ليفسرهما ولينقذهما[3].

مفهوم الطفل:

الطفل لغة: هو البنان الرخص ، والرخص الناعم الرقيق ، جمعه أطفال وطفول ، والطفل والطفلة : الصغيران ، والصبي يدعى طفلا حين يسقط من بطن أمه إلى أن يحتلم[٤].

الطفل اصطلاحا: الطفل هو عالم من المجاهيل المعقدة كعالم البحار الواسع الذي كلما خاضه الباحثون كلما وجدوا فيه كنوزا وحقائق علمية جديدة لازالت مخفية عنهم وذلك لضعف وضيق إدراكهم المحدود من جهة واتساع نطاق هذا العالم من جهة أخرى[٥].

مفهوم التربية:

التربية لغة مأخوذة من كلمة الرب وهي تبليغ الشيء إلى كماله شيئا فشيئا، يقال : ربَّ ولده يَرُبُّه ربًّا : ربَّاه أي أحسن القيام عليه ووليه حتى أدرك. وتأتي بمعنى : الزيادة ، والنماء ، والرعاية ، والثقافة ، والإصلاح ، والسياسة ، والسيادة ، والتدبر لأمور الخلق ، والتنمية والاجتماع[٦].

التربية في الاصطلاح: هي تنشئة الفرد وإعداده على نحو متكامل في جميع الجوانب العقدية والعبادية والخلقية والعقلية والصحية ، وتنظيم سلوكه وعواطفه في إطار كلي يستند إلى شريعة الإسلام من خلال الطرق والاجراءات التي تقبلها الشريعة[٧].

أهمية الأدب في تربية الأطفال:

الأدب عنصر فعال مؤثر، وموجه تربوي أكيد، فعلينا أن نهتم بما نقدمه للطفل من أدب بأنواعه المختلفة، وأن نعني أشد العناية بالشكل والمضمون. فالقصة أو المسرحية أو القصيدة والأنشودة لا تكفي أن تتضمن موضوعا خيرا يدعو إلى مكارم الأخلاق ومحاسنها في ثوب خلق وألفاظ عسرة، وأساليب فجة، وإذا كان الأكل بالنظر، فإني متأكد من أن العاقل لن تمد يده إلى طعام دسم في خوان قذر يرابط الذباب على حوافه.

وإذا استطاع الأديب أن يقدم الأدب النافع المتوازن، في إستخدام هذه الأدوات، دون الإخلال بالتناسق والتكامل والتلاؤم، فقد حقق رسالته، وتمكن من جذب الأطفال إلى مائدته، وبذلك تتحقق للطفل الفائدة والسعادة والمتعة، وتتحقق لأمته الثقة، والاطمئنان في المستقبل والوفاء بالمسؤولية.

وإذا كان الآباء يهتمون بالغذاء النافع المفيد لبناء أجسام أطفالهم، فهذا للدم، وذلك للعظم، وثالث لتكوين اللحم، ورابع للحواس، إلى آخر ما في قائمة الغذاء من فوائد، وإذا كانوا يهرعون إلى الأطباء إذا أحسوا باعتلال في صحتهم، فيحرصون على إعطائهم جرعات الدواء في أوقاتها المنتظمة دون إخلال، فعلى الأدباء مسؤولية تقديم الأدب المتكامل للأطفال، ذلك الأدب الذي يبعث المتعة في النفس، والخيال في الذهن، والتفكير في العقل، وصدق الشعور في القلب، وإذكاء المدارك وتنمية الوعي بالذات وبالآخرين.

فأدب الأطفال الذي نريد "وسيلة من وسائل التعليم والمشاركة والتسلية، وسبيل إلى التعايش الإنساني، وطريق لمعرفة السلوك المحمود، وأداة لتكوين العواطف السليمة للأطفال، وأسلوب يكتشف به الطفل مواطن الصواب والخطأ في المجتمع، ويقفه على حقيقة الحياة، وما فيها من خير وشر"[٨].

هذا ما نهدف إليه من أدب الأطفال، وإذا كان المضمون وحده لا يكفي، فإن القشرة الذهبية لا تنشئ أجيال المستقبل، والبهرجة والتسلية لا تترك أثرا في النفس، وإنما تطلب لذاتها ووقتها.

أدب الأطفال والتربية العقدية والخلقية:

إن الحديث عن القيم الفنية والموضوعية في أدب الأطفال لا ينفصل عن الحديث عن أهمية التربية العقدية والخلقية، وإرساء مبادئهما في نفس الطفل.

وبما نعلمه من تأثير الأدب بأنواعه المختلفة في نفوس الناشئة، فإن تأثيره في غرس المبدأ، وتنمية السلوك وتوجيهه عظيم وفعال.

ولا شك في أن المهمة الملقاة على عاتق الأديب في هذا الميدان أصعب من غيرها، للموقف والحال، ولأنه يحتاج إلى الدقة في اختيار ما يلائم مدارك الطفل، وما يستوعبه عقله، مع مراعاة الوضوح في النماذج التي تقدم إليه، ونخص بالذكر بعض الأفكار الدينية التي تحتاج إلى زيادة إيضاح.

ولسنا مع الذين يرون أن تقديم الأفكار الدينية في السن المبكر ضارا أو قد تكون نتيجته عكسية[٩]، فليس هناك ما يمنع من أن نقدم للطفل بعض الأفكار التي قد يحتاج إليها، أو يكثر السؤال عنها، والتي قد لا تتضح في ذهنه، إذا ما تمتعنا بدراية حاجات الطفل، واستطعنا

بخبرتنا أن نقدمها له في إطار من اليسر، وأن يكون الرفق رائدنا في الإجابة عن تساؤلاته الملحة حول هذه الأفكار التي يحاول دائما تشخيصها وتجسيدها.

ولسنا نتفق مع من قال – حين تحدث عن العقيدة والأخلاق في أدب الأطفال –: "والذين يتخذون أدب الأطفال وسيلة لغرس عقيدة دينية خاصة فى قلوب الناشئة، يجب أن يتخذوه أيضاً وسيلة من وسائل احترام الأديان الأخرى، وأن يتحولوا عما كان يحدث قبلاً من تعميق الكراهية للأديان المخالفة لعقيدته، أو الاستخفاف بها وازدرائها، وألا يتعرضوا في مراحل الطفولة المبكرة إلى المقارنة بين الأديان، أو إظهار الفروق بينها، بل تصور جميعها على أنها أديان من عند الله، ويختلف فيها الناس كما يختلفون في جنسياتهم ولغاتهم"[١٠].

إن خطر هذا القول عظيم، فإذا ما رُبِّيَ الطفل على هذا الاعتقاد، فإنه لن يتحرج مستقبلاً في أن يكون يهودياً أو نصرانياً، طالما أن الأديان واحدة، وأن بالإمكان تغييرها كالملابس، أو الإعجاب بأحدها، كإعجاب أحدنا بطعام أو شراب.

لا، ليست الأديان بهذه الصورة، ويجب أن لا تقدم بهذا الشكل للطفل المسلم، فالخلاف بين الإسلام وغيره من الأديان ليس خلافاً ذوقياً أو مزاجيا، إنما هو خلاف أكيد بين الحق والباطل، فالناس لا يختلفون في الأديان كما يختلفون في اختيار ملابسهم وأذواق طعومهم ومشاربهم، وقد بين رب الناس لكل الناس أن الدين عند الله الإسلام، وأن الأديان الأخرى قد زُيِّفت، وحَرَّفت فئةٌ من أتباعها كلام الله، ولا يعنى هذا إظهار العداء لهذه الأديان في أصول تنزيلها، فحقيقة هذه الأديان أنها مبلغة للأنبياء عن رب العزة، ولا مجال للطعن في ذلك، والإسلام لا يفرق بين الرسل، لأنهم جميعاً أرسلوا بدين التوحيد، أما التزييف والتحريف فقد حصل بعد ذلك من أتباع هذه الديانات.

وطالما أن هذه القضية حسمت بما جاء في قوله تعالى: ﴿إن الدين عند الله الإسلام وماختلف الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ماجاءهم العلم بغيا بينهم ومن يكفر بآيات الله فإن الله سريع الحساب. فإن حآجوك فقل أسلمت وجهي لله ومن اتبعن وقل للذين أوتوا الكتاب والأميين ءأسلمتم فإن أسلموا فقد اهتدوا وإن تولوا فإنما عليك البلاغ والله بصير بالعباد﴾ (سورة آل عمران: ١٩–٢٠).

فإن التوضيح في هذه المسألة مطلب حيوي، وعنصر ضروري في توجه الطفل واستقرار عقيدته، وإلا فإن الحيرة والارتباك، وعدم تبين منهج الحق، ستكون النهاية التى يسير إليها الطفل

المسلم، وبذلك نكون قد نفذنا خطط أعداء الإسلام، وخالفنا رسولنا الكريم عليه الصلاة والسلام في توجيهه التربوي السليم، فقد رأى أحد الصحابة يحمل بين يديه كتاباً من كتب أهل الكتاب، فقال عليه السلام: (أمتهوكون[11] أنتم كما تهوكت اليهود والنصارى)[12] هذا هو المنهج التربوي السليم، فلا حيرة ولا اضطراب، وإنما تركيز وتوجيه على المبدأ الحق.

ولاشك أن الإسلام دين الفطرة والله تعالى خلق كل مولود على فطرة التوحيد كما جاء في الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه وينصرانه ويمجسانه[13]"

لكن الأدباء والقيمون على التربية يقتصرون على غرس العقيدة الدينية، والتركيز عليها دون العرض للأديان المختلفة، إذ التوزيع وعدم التركيز يؤدي إلى التشتت، كما أن المقارنة بين الأديان فيها من العمق ما يصعب على أصحاب التخصص الدقيق، فكيف نعرضها على الطفل الذي لا يستوعبها عقله الصغير.

ووصية لقمان لابنه من أمثل الوصايا في تربية الأطفال وتكوينها وبناء شخصيتها على المنهج الإسلام العقدي والخلقي والتشريعي والاجتماعي، وقد عدد الله سبحانه وتعالى بعض هذه النصائح التي أوصى بها لقمان الحكيم وكان من أهمها وأخطرها التحذير من الشرك لأنه نهاية القبح والشناعة، كما قال تعالى: ﴿وإذ قال لقمان لابنه وهو يعظه يا بني لا تشرك بالله إن الشرك لظلم عظيم﴾ (سورة لقمان:١٣) قال الصابوني: وحذر لقمان ابنه من ضرر الشرك لأنه ظلم صارخ وعدوان مبين لما فيه من وضع الشيء في غير موضعه ، فمن سوى بين الخالق والمخلوق وبين الإله الرازق والصنم الذي لا يسمع ولا ينفع ولا يغني عن صاحبه شيئا فهو — بلاشك— أحمق الناس وأبعدهم عن منطق العقل والحكمة[14].

ولا يفوتني أن أذكر موقف نجيب محفوظ الذي ينقل لنا وجهة نظره عن الأديان عن طريق نموذج لطفلة تسأل أباها عن سبب كونها مسلمة، وصديقتها مسيحية؟

تسأل الطفلة:

- لم يابابا؟
- أنت صغيرة وسوف تفهمين فيما بعد.
- أنا كبيرة يابابا.

- بل صغيرة يا حبيبتي . . . .
- لم أنا مسلمة؟

ويرد الأب بإجابات ثلاث لإقناع الطفلة لماذا هي مسلمة، وصديقتها نادية مسيحية؟ ولننظر في هذه الإجابات التي لا تكاد تتفق مع منهج الإسلام العقائدي.

الإجابة الأولى:

((قال : بابا مسلم وماما مسلمة ولذلك فأنت مسلمة، ونادية باباها مسيحي وأمها مسيحية ولذلك فهي مسيحية))

الإجابة الثانية:

((حسن، أنت تعرفين الموضة، واحدة تحب موضة، وأخرى تفضل موضة، وكونها مسلمة هو آخر موضة، ولذلك يجب أن تبقى مسلمة)).

- يعني نادية موضة قديمة؟

الإجابة الثالثة:

المسألة مسألة أذواق، ولكن يجب أن تبقى كل واحدة كباباها وماماها، كل دين حسن، المسلمة تعبد الله، والمسيحية تعبد الله[١٥].

فهل هناك إقناع وتوجيه حقيقي أم تهرب وتضليل يؤديان بالطفل إلى الحيرة؟ وهل الدين موضة وذوق وإرث؟ وهل علينا أن نكبت في الطفل القدرة على التفكير والاستنتاج؟ وهل هذه الأسئلة الفكرية تقدم للطفل بهذا الشكل المضطرب؟ وبخاصة أن علماء النفس يؤكدون على أن ما يقدم للأطفال يبقى في أذهانهم "الغضة التي تتقبل كل شيء وتتشبع به، فتبقى الصور والدلائل التي تحملها راسخة في تلك الأذهان على مدى الحياة، حتى إذا ما تخلى عنها العقل الظاهر في فترة من فترات الحياة، فإنها تظل مرتبطة بما يسميه علماء النفس بالعقل الباطن، فتؤثر في سلوك الإنسان على غير وعي منه، لأنه تأثير ترسب في ما وراء الشعور[١٦]".

ومع ذلك، فنحن ندعو إلى توجيه الطفل إلى أدب المعاملة الإسلامية مع من يخالفونه، لما في ذلك من جدوى، فوجوب المعاملة الحسنة، بالكلمة الطيبة، وعدم الاعتداء، والصدق والوفاء، والمحافظة على العهود والمواثيق، والزيارة ولطف المعاملة، كل ذلك من صفات المسلم الحق، وبهذا نتوجه بالطفل إلى الطريق القويم.

أما التفريق بين الدين الإسلامي والأديان المخالفة، فليس تعميقاً للكراهية، بمقدار ما هو توضيح لمنهج عقدي إيماني، وتبيان ما فيه من اختلاف بين حق وباطل، وما ينفع الإنسان في دنياه، وآخرته وما يضره، ما فيه مصلحته، وما هو خطر عليه.

ويبقى لأهل الأديان الأخرى حرية المخالفة للدين الإسلامي، فهم على دينهم، كما قال تعالى: ﴿لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي. . . ﴾ (سورة البقرة: ٢٥٦)

وفي قوله تعالى: ﴿ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن...﴾ (سورة النحل: ١٢٥)

وقد عاش اليهود والنصارى تحت قبة الدولة الإسلامية آمنين مطمئنين، وهذا ما يجب أن يفهمه أطفالنا[١٧].

وإذا كان الإسلام دين الفطرة، فإن الطفل بفطرته يميل إليه، وما على الأديب إلا أن يراعي حاجات الأطفال واستعداداتهم وميولهم، وأعمارهم الزمنية والعقلية. . .

ولا شك في أن التدرج الذي هو أسلوب الإسلام سيؤدي بالطفل إلى أن تنمو هذه العقيدة في قلبه وفكره نمواً طبيعياً لا اضطراب فيه ولا تشويه.

ومن مجال ذات الطفل نبدأ معه، ومع حليب الرضاعة يبدأ امتصاص رحيق العقيدة قطرة قطرة، ثم نتوسع في الدائرة من حوله شيئاً فشيئاً، إلى أمه وأبيه وإخوته وأقاربه وجيرانه، ثم إلى الناس جميعاً، وإلى ما يقع تحت حواسه: من موجودات جامدة ومتحركة، وما يملأ هذه الطبيعة من مظاهر مختلفة، وهذا الكون البديع الذي هو صنع بديع السموات والأرض.

والطفل عضو في هذا كله، وعلينا أن نبين له موقعه، ونحدد له ما حوله، وعليه أن يعامل ويتعامل، وأن يفهم ويتدبر. لأن "التربية السليمة هي تلك التى تسير بالإنسان – وبخاصة في بدء تكوينه التربوي والتعليمي– في اتجاه واحد صحيح نقي، ولا تلقي به في متاهات الأفكار الغربية والنظريات السقيمة"[١٨].

من ذلك كله تخلص إلى أن ما يقدم للطفل "يجب أن يتفق مع منهج الإسلام العقدي والخلقي والتشريعي والاجتماعي"[١٩].

القصة في أدب الأطفال:

إذا كانت الأمم الفطرية قد استحدثت قصصاً تناسب عقليتها وعقائدها، فإن طبائع الأطفال تصغي إلى سماع الأحداث وتطورها.

وقد عني الأدب العربي بقصص الطفولة قديماً وحديثاً، فقد نقل لنا الأدب العربي القديم الكثير من القصص التي تتحدث للأطفال أو تتحدث عنهم، أما ما يتحدث لهم فيظهر ذلك من ترجمة كليلة ودمنة، وممن عمل "الأسمار الخرافات على ألسنة الناس والطير والبهائم جماعة، منهم: عبد الله بن المقفع، وسهل بن هارون، وعلي بن داود كاتب زبيدة، وغيرهم[٢٠]".

أما ما يتحدث عنهم، وينقل حكاياتهم وأخبارهم، فقد حرصت كتب التراث الأدبي على أن تنقل بين سطورها حكاية أو حادثة أو خبراً عن الأطفال تذكر قصص شجاعتهم ونجابتهم، وما امتازوا به من فصاحة ونباهة، ولعل أشهر كتاب عرض لأخبار الأطفال وحكايتهم وقصصهم هو كتاب "أنباء نجباء الأبناء" لابن ظفر الصقلي[٢١].

وفي الأدب الحديث تزامن ظهور قصص الأطفال مع عصر النهضة، وظهر خاصة في مصر بعد الحملة الفرنسية، وقد بدأت قصص الأطفال مترجمة.

ولعل من أرسى قواعد قصة الطفولة هو كامل كيلاني، الذي قدم ما يزيد على مائتي قصة ومسرحية مما أنتجه وعربه، ثم بدأ الاهتمام الجديد بأدب الطفل، فوجدنا كتاباً يهتمون بقصص الطفل في كثير من البلاد العربية.

وللقصة في أدب الأطفال مزايا منها أنها تنمي في الطفل مداركه، وتذكي مشاعره، وتدفعه إلى التأمل والتساؤل، وتوسع دائرة أفقه، وتكون متنفساً لطاقاته المنتجة، وتدريباً لخياله، كما يكون اللعب تدريباً لعضلاته وذهنه، وعن طريقها تتفتح عواطفه البكر، وانفعالاته المبكرة[٢٢]. ولها من الأهداف التربوية، والمقاصد التهذيبية، والمزايا اللغوية، إلى جانب ما تحمله من أفكار، وتقدمه من معلومات مختلفة عن كل ما يحيط بالطفل فتوضح له الطريق، وتبصره بالمعاني السامية والأخلاق الفاضلة، وتنفره من كل ما هو مذموم، وتجذبه إلى كل ما هو محمود، إذا كانت هذه مزايا القصة، فإن من نافلة القول أن نؤكد على سلامتها من الغموض، وبعدها عن التكلف، مع وضوح العبارة، والبعد عن اختلاط الأحداث وتداخلها، وصدق الشعور والتعبير عنه، في إطار موضوعي تتنامى فيه الأحداث.

وبإيجاز نقول: إن اكتمال عناصر القصة هو المطلوب في قصص الأطفال. ولكن ما هي هذه العناصر؟ وهل العناصر في قصص الصغار هي العناصر في قصص الكبار؟

يؤكد ذلك الدكتور نجيب الكيلاني فيقول: "إنها في الواقع عناصر لا تخرج عن مثيلاتها في القصة كعمل أدبي، مع مراعاة ما يناسب الطفل عند تطبيق القواعد. ولكي نضرب لذلك مثلا، فإن العقدة أو الحبكة من ضرورات القصة بوجه عام، لكن الطفل لا تناسبه إلا العقدة الواحدةالمبسطة دون تشعبات، بينما الكبار يقدرون على فهم العقد المركبة، وهناك أيضاً اختلافات تتعلق بالشخصية والحدث والسرد، وبالتعبير المباشر وغير المباشر، وبالألفاظ والصور البيانية والبلاغية"[٢٣].

ولعل هناك من يخالف الدكتور الكيلاني فيما ذهب إليه، فقصص الصغار ليست على مستوى واحد حيث تتعدد هذه المستويات، وعلماء التربية يقسمون الطفولة إلى ثلاث مراحل: مرحلة الطفولة المبكرة، والمتوسطة، والمتقدمة، حتى أنهم في كل فئة عمرية يختلفون في قدراتهم وأذواقهم وعاداتهم، فمرحلة الطفولة الأولى قد لا تلتفت إلى هذه العناصر، وتميل إلى القصة المصورة، وقد تندفع الفئة الكبيرة إلى قصص الكبار حبا في الاستطلاع، أو ميلاً إلى التقليد، أو إظهاراً للنضوج واختراق عالم الكبار، ولذلك ابتكروا ما يسمى برواية عمر المراهقة[٢٤].

ولهذا نقول: إن اعتماد عناصر معينة في قصص الأطفال والتركيز عليها، واعتبارها ثوابت لا يمكن للقاص أن يتخفف منها، إنما هو ضرب من التعسف، وقيد يقيد حركة كاتب القصة للأطفال، وإذا ما رحنا نعد العناصر الفنية للقصة ونذكر على سبيل المثال: "الحبكة والبيئة الزمانية والمكانية، والفكرة، والشخصية، والسرد، والحدث، والأسلوب أو البناء، والشكل أو الحجم" فإن لكاتب قصة الأطفال أن يأخذ من هذه العناصر ما يناسب الفئة العمرية التي يخاطبها. وعليه أن يراعي في هذه العناصر عدة أمور:

ففي الحبكة عليه أن يبتعد عن الغموض، وأن يربط الأحداث عن طريقها بتسلسل مقبول، غير قائم على المصادفة أو السطحية، والأطفال يصغون للقصة أو يتابعونها لأنهم يتوقون إلى معرفة ما سيحدث "ولابد من حدوث شيء في قصة الأطفال، ويجب أن يحدث بطريقة سببية مترابطة، وليس جواباً على السؤال: ماذا حدث بعد ذلك؟ ولكن جواباً عن السؤال: لماذا؟[٢٥]".

أما في السرد فإن الأطفال يميلون إلى أن يكون موجزاً، فإذا مازاد عن الحد المقبول أصابهم بالملل، ودعاهم إلى إلقاء القصة، لأن الطفل يريد أن يتابع الحدث ويستمتع بالحوار القصير

المعبر، وأن تثير القصة فيه بشخصياتها وأحداثها وأسلوبها الاندهاش والإعجاب والإثارة والرغبة.

أما الفكرة أو الموضوع، فليس هناك موضوعات هامة وغير هامة في قصص الأطفال، فالقاص الناجح يستطيع أن يختار موضوعاته من كثير من المواقف التي يتعرض لها الأطفال، ومع ذلك فبإمكانه الاستعانة بالماضي والحاضر، والكاتب الإسلامي معينه لا ينضب، فالموضوعات أمامه سيل لا ينفذ، فالقرآن الكريم والحديث الشريف، وكتب التاريخ والأدب تمده بما لا حصر له من الأفكار والموضوعات. أما الحاضر بعلومه وامتداد آفاقه وتعدد مناحيه فهو ميدان فسيح للأفكار.

وبخصوص الأحداث فعلى الكاتب أن يكون حذرا في تناولها، لأن الفشل سيكون من نصيب القصة التى تتشابك فيها الأحداث وتتداخل خيوطها، و "الأطفال لا يتحملون الضجر، إذ أن الطفل القارىء كالسمكة الحذرة الخفيفة الحركة، ولأجل المحافظة على اهتمامه عليك أن تزود كتابك بالطعم المتسم بالبراعة، وتلاعبه بكل فنون الصياد بالسنارة، وعليك أن تحافظ على دوام حركة الحدث"[٢٦]، وأن تتقن طرق الإقناع والتفاعل النشط، وأن تملأ الفجوات التي قد تشكل عوائق عن طريق فتح بعض الممرات في الحدث، أو إعطاء بعض المعلومات المفيدة في المتابعة والاستكشاف، أو إثارة العطف على الشخصيات، فإن هذا مفيد كله في سعادة الأطفال، واتخاذهم موقفاً نحو قصتك.

وفي مجال الشخصية، فإن بناء الشخصية في قصة الأطفال أمر حيوي، واختار البطل وانتقاؤه من بين العديد من الأسماء تعطيك بداية جيدة، ورسم الشخصيات وتصويرها خارجياً وداخلياً، وارتباطها بالأحداث "والشخصيات التي تصور في كتب الأطفال يجب أن تقنع القارىء بأنها حقيقة مع نفسها أو تماثل الحقيقة والاقتناع بالشخصية وتصديقها يتوقف على قدرة المؤلف على إظهار الطبائع الحقيقية والسلوكية، والأعمال الخارقة والقوة والضعف لهذه الشخصيات في صورة حقيقية"[٢٧].

والأسلوب أو البناء لا يعني فقط المقدمة والإطار والخاتمة، وإنما يعني نمو الأحداث والقدرة على التحليل والتعليل من خلال مادة البناء وهي اللغة، واللغة لفظاً وتعبيراً يجب أن تكون موافقة لمدارك الطفل، ومعبرة عن أمانية وطموحاته، عاملة على بناء شخصيته وقدراته اللغوية والثقافية، "واللغة العربية– من أغنى لغات العالم بالكلمات التي توحي بألوان مختلفة من

المعاني، ومن ظلال المعاني، وهي أكثر مرونة من غيرها من اللغات الحية المعروفة، ذلك لأنها أكثرها قبولاً للاشتقاق"[٢٨].

من هنا فإننا نرفض الأساليب الركيكة أو تلك التي تتجه إلى اللهجات المحلية بحجة أن الأطفال ليست لديهم قدرات على استيعاب اللغة الصحيحة، وهذه حجة واهية تؤدي إلى بناء آيل إلى السقوط، وهذا جون ايكن يؤكد على هذه الحقيقة في استعمال اللغة في قصص الأطفال، بل يدعو إلى استعمال الكلمات الصعبة، على أن لا يلجأ الكاتب إلى العامية واللهجات المحلية، حيث يقول: "اللغة في كتاب الأطفال مهمة بشكل حاسم، فأنت لصيق بقارئك، وتتحدث إليه في أذنيه، فيجب أن تكون متأكداً تماماً من معانيك ومقاصدك، وتبذل أقصى جهدك في نقلها، ثمة فضيلة أيضاً في إدراك القارىء. أن الكاتب يبذل قصارى جهده من أجله، وإذا كانت هذه الجهود تشمل إستعمال بعض الكلمات الصعبة، فلا ضير على القاريء أن يفهم أن عليه أن يبذل جهده أيضاً لفهمها، لذا فإن العامية والشعارات والاستعمالات البالية المهملة لا تلائم أبداً الفن القصصي في كتب الأطفال"[٢٩].

وآخر هذه العناصر: الشكل أو الحجم،

وقد ذكرنا آنفاً أن انقسام الأطفال إلى فئات عمرية، واختلاف هذه الفئات أحيانا داخل بعضها البعض، يتطلب منا اهتماما مناسباً لحجم القصة المطلوبة لكل فئة، وليست هناك ضرورة للتحديد القسري، فمراعاة الزمن، وقدرة الطفل على القراءة مهمة في تحديد هذا العنصر، فقصة الطفل الصغير يجب أن لا تكتظ بالسطور والصفحات، كما أن حجمها الصغير وإخراجها الجيد مع الرسوم الموضحة للأحداث والدالة عليها، تجعلها مختلفة عن تلك التي تقدم للفئة المتوسطة أو الكبيرة، غاية الأمر أن لا يبالغ الكاتب في الإطالة أو الإيجاز.

ومع ذلك يقفز سؤال هام هو: ما مقياس نجاح القصة إذا استوفت كل ما ذكرناه؟

إن نصف النجاح يعود إلى ما سبق ذكره، والنصف الآخر يرجع إلى إقبال الأطفال على القصة إقبالاً يشعرنا بأنها التصقت بنفوسهم، وأصبحت جزءاً من أفكارهم وكيانهم، فهم يتقمصون أبطالها ويرددون عباراتها، ويتحمسون لها.

وعلينا عند تقديم القصة للأطفال، وحين يقرأونها أو تقرأ عليهم أن نرقب ملامحهم وحركاتهم، ثم نرصد النتائج على ضوء ما نشاهد ونحس، فإن كان الإصغاء والانبهار والإعجاب والمتابعة،

فذلك يدل على النجاح، وإن كان التشاغل وعدم الاكتراث، مع الشعور بالملل والتراخي، وعدم المتابعة، فهذا يدل على حدوث خلل في القصة، والواجب علينا البحث عنه معالجته، فهل هو في الشكل المقدم؟ أم أن الخلل وقع في المضمون؟ أم أن الفكرة عميقة أو سطحية، والموضوع أرفع أو أدنى مستوى، أم أن القصة بموضوعها وعناصرها أو بعض عناصرها لا تقع في دائرة اهتماماتهم، أو أنها لا تشكل جزءاً من بيئتهم فهي غريبة عليهم؟

واختلف في إقبالهم على أنواع القصص، فالفئة التي تميل إلى القصص المصورة أو قصص الحيوان غير تلك التي تتجه نحو القصص الديني والأسطوري، غير التي تبحث عن القصص العلمي والعاطفي والخيالي.

وقصص الأطفال متنوع متعدد، منه ما هو أسطوري أو خرافي، ومنه ذلك الذي يجري على لسان الحيوان، ومنه القصص الشعبي والفكاهي والتاريخي، وكذلك القصص الشُرَطي أو قصة الحادثة والمغامرات، ومنه القصص الديني والعلمي.

ونحن لا نقف من هذه الأنواع موقف الرفض، إلا إذا كانت خطراً على الدين والأخلاق والعلم، وكانت خطراً على المناهج التربوية السليمة.

ونخص بالذكر قصص الخرافات والأساطير، وعلى الرغم من الهدف الإمتاعي لها، فإننا إذا لم نجد فيها مراعاة المفهوم الإسلامي فعلينا أن ننبذها، لأنها تكون بذلك منافية لقيم الإسلام ومبادئه، كما نجد ذلك في الأساطير اليونانية التي تعدد الآلهة وتنزلهم منزلة البشر، فيتآمرون ويرتشون ويحقدون، ففي هذه الأساطير خطر محقق على عقيدة أطفالنا.

كما أنه من الخطأ المحقق أن نقدم للأطفال، وبخاصة في المرحلة المبكرة من حياتهم "الحكايات المخيفة والقصص المفزعة، كأن تشتمل على حوادث الغيلان وقتل الأطفال"[٣٠]

وهناك ما هو أشد فزعاً ورعباً من حكايات الغيلان، ذلك ما يزودنا به الغرب من حكايات "داركيولا" ومن مسلسلات وتمثيليات تفسد قلوب الأطفال وعقولهم ، ويربيهم على الخوف والفزع، مما يسبب لهم الكثير من الأمراض النفسية والاجتماعية، وفقدان الشعور.

ولسنا مع جون إيكن الذي يرى أن تقديم الأشرار المرعبين الذين يقف لهولهم شعر رأس الأطفال هو عمل مقبول ومحبب، لأنهم – أي الأطفال– يحبون أن يشعروا بالفزع وهم أشد غلظة من الكبار[٣١].

وفي الختام نقول:

الأدباء الذين يكتبون للأطفال فعليهم أن يركزوا الجرعة الإيمانية، وأن يضعوا الضوابط لبعض المفاهيم السائدة، حتى لا يشعر الطفل بالضياع والارتباك، وسوء الفهم والتقدير، من ذلك: الحرية والمسؤولية، والحلال والحرام، والخير والشر، والعيب الذوق، وما يجب وما لا يجب، كل ذلك بأسلوب رقيق رفيق، يأخذ في حسبانه الفئة التى يخاطبها.

من ذلك كله تخلص إلى أن ما يقدم للطفل "يجب أن يتفق مع منهج الإسلام العقائدي والأخلاقي والتشريعي والاجتماعي"[٣٢].

وباستعراض مناهج المفكرين والتربويين الإسلاميين نجد تأكيداً على ذلك كله، كي تنشأ شخصية الطفل وهي تتميز بتميز واستقلال ووضوح.

أما نحن فعلينا أن نقدم لأطفالنا كل ما يرسخ في نفوسهم قيم الدين ومبادئه، ونماذج الأخلاق والقدوة الحسنة، وما يهيىء لهم المعرفة والمتعة في آن واحد، كي نربي فيهم الثقة والاطمئنان، وروح البناء وحب الخير، ونبني فيهم القوة والشعور المتدفق، والإحساس العميق، ونزرع فيهم بذرة الفضيلة، لتسمو نفوسهم وغاياتهم ومقاصدهم.

المصادر والمراجع :

١- انظر: ابن منظور : جمال الدين محمد بن مكرم أبو الفضل ، **لسان العرب** (بيروت: دار إحياء التراث العربي، ومؤسسة التاريخ العربي، ١٤١٦هـ) ط١، ج١، ص٩٣، و الفيروز آبادي ، **القاموس المحيط** (بيروت: مؤسسة الرسالة١٤١٦هـ) ط٥ ، ص ١٠٣٢،١٠٣٣ . و د. إبراهيم أنيس وأصحابه ، **المعجم الوسيط** (المجمع وزارة المعارف والتربية والتعليم١٣٩٢هـ) ج ١ ، ص٩.

٢- الجرجاني: الشريف علي بن محمد ، **التعريفات** (بيروت: دار الكتب العلمية ١٤١٦هـ) ط:بدون ، ص١٥.

٣- محمد شفيق غربال ، **الموسوعة العربية الميسرة** (القاهرة: دار الشعب ١٩٦٥م) ط١ ، ج١ ، ص٦٥.

٤- ابن منظور ، **لسان العرب** ، ج ٨ ، ص١٧٤ . ود. إبراهيم أنيس أصحابه ، **المعجم الوسيط** ، ج٢ ، ص٥٦٠.

٥- د. محمد ناصر ، **حقوق الطفل في ضوء القرآن والسنة** (مصر: دار الشرق ١٩٩٢م) ط١، ص٨

٦- ابن منظور ، **لسان العرب** ، ج٥ ، ص١٢٨. ود. إبراهيم أنيس وأصحابه ، **المعجم الوسيط** ، ج١ ، ص٣٢٦.

٧- حمد شاكر الشريف ، **نحو تربية إسلامية راشدة** (الرياض: مكتبة الملك فهد الوطنية ١٤٢٧هـ) ط١، ص١٢-١٣.

٨- د. علي الحديدي ، **في أدب الأطفال** (القاهرة: مكتبة الأنجلو المصرية ١٩٨٢م) ط٣، ص ٦٤.

٩- انظر: المرجع السبق ، ص١٠٨.

١٠- المرجع السابق ، ص١٠٧.

١١- التهوك كالتهور ، وهو الوقوع في الأمر بغير روية ، والمتهوك : الذي يقع في كل أمر ، وقيل: التحير. انظر: ابن الأثير الإمام مجد الدين أبي سعادات المبارك ، **النهاية في غريب الحديث والأثر** (بيروت: دار إحياء التراث العربي) ط: بدون ، باب الهاء مع الواو، ج٥، ص٦٦٠.

١٢- الدارمي الإمام الحافظ عبد الله بن عبد الرحمن السمرقندي، **السنن** (بيروت: دار الكتاب العربي ١٩٨٧م) ط١، ج١، ص١١٥. وحسنه الألباني وذكرله شواهد كثيرة .

١٣- البخاري أبو عبد الله محمد بن إسماعيل الجعفي ، **صحيح البخاري مع شرح فتح الباري** (القاهرة: دار الريان للتراث ١٤٠٩هـ) ط٢، ح رقم ١٣٨٥. مسلم بن حجاج القشيري ، **صحيح مسلم** (بيروت: دار الكتب العلمية ١٤١٥هـ) ط١ ، ح رقم٢٦٥٨.

١٤- الصابوني : محمد على ، **روائع البيان تفسير آيات الأحكام من القرآن** (بيروت: مؤسسة التاريخ العربي ، ودار إحياء التراث العربي١٤١٤هـ) ط:بدون ، ج٢ ، ص٢٣٨.

١٥- نجيب محفوظ، **جنة الأطفال من مجموعة خمارة القط الأسود** (بيروت: دار القلم ١٩٧١م) ط١، ص٧٢- ٧٤.

١٦- محمد فهمي عبد اللطيف ، **الحدوتة والحكاية في التراث القصصي الشعبي** (بيروت: دار الكتب العلمية ١٤٠٩ه) ص١٥.

١٧- المباركفوري ، صفي الرحمن ، **الرحيق المختوم** (الرياض : مكتبة المؤيد للنشر والتوزيع ١٩٩٢م) ط:بدون ، ص١٩٢.

١٨- د. عبد الرزاق حسين ، **الإسلام والطفل** (الرياض: إدارة الثقافة والنشر بجامعة الإمام ١٤٠٩هـ) ط: بدون ، ص٤٩.

١٩- عبد الصبور محمود سلطان ، **مسار الفكر التربوي** (الكويت: دار القلم ١٣٩٦هـ) ط: بدون ، ص ٦١.

٢٠- ابن النديم، **الفهرست** (القاهرة: المطبعة الرحمانية ١٣٤٨هـ) ط: بدون ، ص ١٧٤، ٤٢٤.

٢١- انظر : د. عبد الرزاق حسين ، **الأطفال في التراث العربي المقدمة** (مخطوط).

٢٢- يوسف الشاروني. **القصة القصيرة نظريا وتطبيقيا** (القاهيرة: المطبعة الرحمانية ١٩٨٦م) ص٢٠.

٢٣- د. نجيب الكيلاني، **أدب الأطفال في ضوء الإسلام** (بيروت: مؤسسة الرسالة ١٤٠٦هـ) ط١ ، ص٥٨.

٢٤- انظر : جون إيكن ، ترجمة: كاظم سعد الدين ، كيف تكتب للأطفال (بغداد: وزارة الثقافة والإعلام ١٩٨٨م) ط١ ، ص٥٤

٢٥- المرجع السابق ، ص١٠٥

٢٦- المرجع السابق ، ص١١٧

٢٧- د. علي الحديدي ، **في أدب الأطفال** ص ١٢٥.

٢٨- المرجع نفسه ، ص ٣٠٦- ٣٠٧.

٢٩- جون إيكن ، **كيف تكتب للأطفال** ص١٤٨

٣٠- انظر: د.نجيب الكيلاني ، **في أدب الأطفال** ص٩٧.

٣١- جون إيكن ، **كيف تكتب للأطفال** ص ١٤٦.

٣٢- عبد الصبور محمود سلطان ، **مسار الفكر التربوي** (الكويت: دار القلم ١٣٩٦هـ) ط: بدون ، ص ٦١.